

أم سند وأم هند

كامل كيلاني



اُمُّ سِنْدٍ وَ اُمُّ هِنْدٍ

تأليف
ڪامل ڪيلاني



اُمُّ سِنْدٍ وَاُمُّ هِنْدٍ

كامل كيلاني

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

رسم الغلاف: حنان بغدادلي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٣٠٧ ٢

صدر هذا الكتاب عام ١٩٤٠.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	الفصلُ الأوَّلُ
١٣	الفصلُ الثَّانِي
١٩	الفصلُ الثَّالِثُ
٢٣	الفصلُ الرَّابِعُ
٢٩	الفصلُ الخَامِسُ
٣٩	خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ
٤١	الْخُطَّافُ

الفصل الأول

(١) استقبال الربيع

جاء أول أيام «أبريل/نيسان»، وكان — على الحقيقة — يوماً معتدلاً للهواءِ صحواً، أعني: أن سماءه صافية خالية من الغيم.

وقد سطعت الشمس؛ فملأت الكون بنورها وبهائها (حسناً)، وسخنت براعم الشجر، أعني: كمامات الزهر، والبراعم هي: زهر النبات قبل أن يتفتح. وأيقظت حرارة الشمس الحشرات النائمة في مخابها؛ فخرجت تستقبل الحياة، وتدب على الأرض (تمشي عليها في مشية بطيئة كمشية الطفل الصغير)، زاحفة، تسعى إلى رزقها.

(٢) شَجَارُ الصَّدِيقَتَيْنِ



وَأَمْتَلَأَ الْجَوُّ بِأَصْوَاتِ الْخَطَاطِيفِ، بَعْدَ أَنْ أَتَمَّتْ رِحْلَتَهَا الطَّوِيلَةَ، وَعَادَتْ إِلَى وَطَنِهَا الْقَدِيمِ. وَجَاءَ خُطَّافَانِ، فَوَقَفَتَا عَلَى مَخْزَنِ غِلَالٍ قَدِيمٍ مَهْجُورٍ نَسَجَتِ الْعَنَاكِبُ بُيُوتَهَا فَوْقَ سَطْحِهِ. وَظَلَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَدْعِي أَنَّ الْعُشَّ مَلِكٌ لَهَا وَحْدَهَا. فَقَالَتْ «أُمُّ هِنْدٍ» — وَهِيَ، شَقْرَاءُ الرَّقَبَةِ، مُلْتَمِعَةُ الرَّيشِ: «لَيْسَ لِهَذَا الْعُشِّ مَنْ صَاحِبٍ غَيْرِي. فَقَدْ وَصَلْتُ إِلَيْهِ قَبْلَكَ، وَلَا حَقَّ لَكَ فِيهِ إِنَّهُ يُعْجِبُنِي، وَيَسُرُّنِي أَنْ أَعِيشَ فِيهِ. وَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى امْتِلَاكِهِ رَضِيَتْ أُمُّ أُنَيْتٍ — فَهَلْ تَفْهَمِينَ؟»

(٣) زَوَارَةُ الْهِنْدِ

فَصَاحَتْ صَدِيقَتُهَا «أُمُّ سِنْدٍ» قَائِلَةً: «شَدَّ مَا ظَلَمْتَنِي وَظَلَمْتَ نَفْسَكَ — يَا «أُمُّ هِنْدٍ» — وَلَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ وَلَا مِنَ الْمُرُوءَةِ أَنْ تَغْتَصِبِي عُسِّي، بَغِيًّا وَعُدْوَانًا. أَلَا تَعْلَمِينَ أَنَّ ابْنَةَ عَمِّي — الَّتِي كُنَّا نَلْقُبُهَا بِـ «زَوَارَةِ الْهِنْدِ» — قَدْ وَهَبَتْ لِي هَذَا الْعُشَّ قَبْلَ أَنْ تَمُوتَ فِي رِحْلَتِهَا الْأَخِيرَةِ؟

(٤) وَصِيَّةُ بِنْتِ الْعَمِّ

أَلَا تَعْلَمِينَ أَنَّهَا قَالَتْ لِي، قُبَيْلَ مَوْتِهَا: «لَيْسَ لِي أَوْلَادٌ يَرِثُونَ عُسِّي، مِنْ بَعْدِي. وَقَدْ وَهَبْتُ لَكَ؛ فَاتَّخِذِيهِ دَارَكَ (مَنْزِلَكَ)، مَتَى عُدْتَ إِلَى الْوَطَنِ الْعَزِيزِ. وَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تُغَيِّرِي الرِّيشَ الْقَدِيمَ الَّذِي فِي دَاخِلِهِ. وَسَتَرَيْنَ الْعُشَّ — بَعْدَ ذَلِكَ — وَفَقَى مَا تُحِبِّينَ.»

(٥) عِنَادٌ وَخِصَامٌ

فَرَفَعَتْ «أُمُّ هِنْدٍ» رَأْسَهَا، وَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا «أُمِّ سِنْدٍ»، وَهِيَ مُهْتَاجَةٌ غَضَبِي (ثَابِرَةٌ غَاضِبَةٌ): «لَيْسَ لِهَذِهِ الْحُجَجِ أَقْلٌ قِيَمَةٌ عِنْدِي. وَلَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْعُشَّ؛ فَهُوَ مِلْكٌ لِي — كَمَا قُلْتُ لَكَ — وَقَدْ بَلَغْتُهُ قَبْلَكَ. فَكُفِّي عَنْ هَذِهِ التَّرْتَرَةِ الْعَابِثَةِ (الْكَلَامِ الْهَازِلِ الْكَثِيرِ الَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ).»

وَتَمَادَتْ «أُمُّ هِنْدٍ» الصَّغِيرَةُ فِي عِنَادِهَا، وَفَتَحَتْ جَنَاحَيْهَا لِتَمَلَأَ الْعُشَّ، فَلَا تَدْعُ فِيهِ مَكَانًا لِصَاحِبَتِهَا. وَظَلَّتْ تَذْكُرُ رِيَشَهَا (تَفَرُّكُهَا)، غَيْرَ مُلْتَفِتَةٍ إِلَى عِتَابِ «أُمِّ سِنْدٍ». فَاقْتَرَبَتْ «أُمُّ سِنْدٍ» مِنَ الْعُشَّ، وَوَقَفَتْ عَلَى بَابِهِ، تُحَاوِلُ الدُّخُولَ قَسْرًا (غَضَبًا مِنْ غَيْرِ مُوَافَقَتِهَا وَرِضَاهَا)، وَتَقُولُ: «كُونِي عَلَى ثِقَةٍ أَنَّنِي آخِذَةٌ مِنْكَ هَذَا الْعُشَّ، رَضِيتِ أُمُّ أَبِيتِ، وَأَنَّنِي لَنْ أَتْرَكَهُ لَكَ أَبَدًا!»

(٦) عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ

وَأِنَّهُمَا لَتَتَشَاجِرَانِ — وَقَدْ اشْتَدَّ لَجَاؤُهُمَا (زَادَ عِنَادُهُمَا وَتَمَادِيَهُمَا فِي الْخُصُومَةِ) — إِذْ جَاءَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ»: وَهُوَ خُطَّافٌ مُهَذَّبُ الطَّبْعِ، جَمِيلُ الشَّكْلِ، كَثِيرُ التَّبَصُّرِ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ.

فَسَأَلَ زَوْجَهُ «أُمُّ سِنْدٍ»: «مَاذَا حَدَثَ، يَا عَزِيزَتِي؟»
فَقَالَتْ «أُمُّ سِنْدٍ»، وَهِيَ غَضَبِي ثَائِرَةٌ: «إِنَّ «أُمَّ هِنْدٍ» قَدْ اغْتَصَبَتْ عُشِّي (أَخَذَتْهُ قَهْرًا وَظُلْمًا). وَهُوَ عُشُّ ابْنَةِ عَمِّي «زَوَّارَةِ الْهِنْدِ»، وَقَدْ وَهَبَتْهُ لِي (أَعْطَتْنِي إِيَّاهُ بِلَا مُقَابِلٍ) كَمَا تَعْلَمُ. وَقَدْ أَصْرَتْ «أُمُّ هِنْدٍ» عَلَى عِنَادِهَا، وَأَمَعَنْتْ فِي لَجَاجِهَا (أَسْرَفَتْ فِي خُصُومَتِهَا). فَرَأَيْتُ أَنَّ أَعَاقِبَ تِلْكَ الْمُعْتَدِيَةِ الْمُغْتَصِبَةِ، وَ...» فَقَاطَعْتُهَا «أُمُّ هِنْدٍ» قَائِلَةً: «لَقَدْ وَصَلْتُ إِلَى الْعُشِّ قَبْلَكَ، وَلَنْ أَبْرَحَهُ (لَنْ أَتْرُكَهُ) عَلَى أَيِّ حَالٍ. وَسَتَرَيْنَ مَاذَا يَحِيقُ بِكَ مِنَ النِّكَالِ (مَا يُحِيطُ بِكَ مِنَ الْعَذَابِ)، حِينَ يَجِيءُ زَوْجِي: «عُصْفُورُ الْجَنَّةِ»».

(٧) صَاحِبُ الْعُشِّ

فَصَاحَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» قَائِلًا: «الرَّأْيُ عِنْدِي أَنَّ «أُمَّ هِنْدٍ» عَلَى حَقٍّ فِيمَا تَدَّعِيهِ (فِيمَا تَزْعُمُ أَنَّهُ حَقٌّ لَهَا)؛ فَقَدْ سَمِعْتُ — مُنْذُ نَشَأْتِي — أَنَّ الْعُشَّ يُصْبِحُ مِلْكًا لِأَوَّلِ مَنْ يَحِلُّ فِيهِ. وَلَسْتُ — يَا زَوْجِي — مُحِقَّةٌ فِيمَا تَزْعُمِيْنَهُ. وَلَنْ تَضِيقَ بِنَا الْأَرْضُ الرَّحِيْبَةُ (الْوَاسِعَةُ). وَلَيْسَ يَجْدُرُ بِنَا (لَا يَحِقُّ لَنَا) أَنْ نَخْتَصِمَ فِي سَبِيلِ عُشٍّ. فَهَلُمِّي (تَعَالَي) — يَا «أُمُّ سِنْدٍ» — نَبْحْتُ عَنْ عُشِّ غَيْرِهِ، فِي مَكَانٍ آخَرَ.»

(٨) مَشِيئَةُ الزَّوْجِ

وَلَمْ يُعْجِبْ «أُمُّ سِنْدٍ» رَأْيَ زَوْجِهَا. وَلَكِنَّهَا — إِلَى ذَلِكَ — لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُخَالَفَ نَصِيحَتَهُ وَشُورَاهُ (مَشُورَتَهُ)، وَلَا أَنْ تَعْصِيَهُ فِيمَا نَصَحَهَا بِهِ وَارْتَاهُ (رَأَاهُ). فَبَقِيَتْ مُتَفَجِّعَةً مُتَحَسِّرَةً، حَزِينَةً مُتَكَدِّرَةً؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ شَدِيدَةَ الرَّغْبَةِ فِي امْتِلَاكِ الْعُشِّ وَالظَّفَرِ بِهِ. ثُمَّ أَذْنَعَتْ لِمَشِيئَةِ

الفصل الأول

زَوْجَهَا (خَضَعَتْ لِرَأْيِهِ)؛ فَفَتَحَتْ جَنَاحَيْهَا. — وَهِيَ مَحْزُونَةٌ الْقَلْبِ — وَطَارَتْ فِي الْهَوَاءِ،
لِتَلْحَقَ بِزَوْجِهَا، الَّذِي سَبَقَهَا؛ حَتَّى أَدْرَكَتَهُ.

الفصل الثاني

(١) في أجواز الفضاء

وَكَانَا يَطِيرَانِ فِي خِفَّةٍ وَهُدُوءٍ؛ فَيُخَيَّلُ إِلَى مَنْ يَرَاهُمَا أَنَّهُمَا مُسْتَقَرَّانِ حَيْثُ هُمَا (ثَابِتَانِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي كَانَا فِيهِ)، وَأَنَّ الْهَوَاءَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمَا إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ. وَكَانَا يَطِيرَانِ فِي خُطُوطٍ مُنْحِنِيَّةٍ بَدِيعَةٍ — عَلَى عَادَةِ الْخُطَافِ فِي طَيْرَانِهِ — وَيَتَنَاغَيَانِ (يَتَحَدَّثُ كُلُّ مَنَّهُمَا بِمَا يُعْجِبُ الْآخَرَ وَيُسْرُهُ) فِي لُطْفٍ، وَيَقْبِضَانِ عَلَى مَا يُصَادِفَانِهِ فِي الْجَوِّ مِنَ الْحَشَرَاتِ الرَّاقِصَةِ فِي أَشْعَةِ الشَّمْسِ. حَتَّى إِذَا شَبِعَا، قَالَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» لِزَوْجِهِ «أُمَّ سِنْدٍ»: «لَيْسَ فِي قُدْرَتِكَ — يَا عَزِيزَتِي — أَنْ تَتَمَثَّلِي (تَتَصَوَّرِي) مِقْدَارَ مَا أَشْعُرُ بِهِ مِنَ السُّرُورِ وَالْفَرَحِ، حِينَ أَهْتَدِي إِلَى وَكْرٍ (عُشٍّ) هَادِيٍّ جَمِيلٍ. انْظُرِي صَوْبَ الْمَغْرِبِ، أَلَا تَرَيْنَ ذَلِكَ الْبَيْتَ الْخَرِبَ؟ أَلَيْسَ هَذَا أَصْلَحَ مَكَانٍ نَبْنِي فِيهِ عُشَّنَا، وَفَوْقَ مَا نُرِيدُ؟»



(٢) الْعُشُّ الْجَدِيدُ

وَأَسْرَعَ الْخُطَّافَانِ فِي طَيْرَانِهِمَا، حَتَّى بَلَغَا تِلْكَ الْخَرِيبَةَ؛ فَحَطَّآ عَلَى نَافِذَةِ مَهْجُورَةٍ قَدِيمَةٍ لَا زُجَاجَ بِهَا. وَجَثَمَ الْخُطَّافَانِ عَلَى حَافَتِهَا (تَلَبَّدَا بِجَانِبَيْهَا) فَرَحَانَيْنِ، وَقَالَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ»: «لَا جَرَمَ (حَقًّا) أَنَّ هَذَا أَصْلَحَ مَكَانٍ نَحْتَارُهُ، وَلَكِنْ يُكَدَّرُ صَفْوَانَا فِيهِ مُكَدَّرٌ. فَإِنَّ هَذِهِ الْغُرْفَةَ الْجَمِيلَةَ، هِيَ — كَمَا تَرَيْنَهَا — مَهْجُورَةٌ، وَأَرْضُهَا كَثِيرَةُ الثُّقُوبِ. وَإِنَّا بِهَا لَسَعِيدَانِ، مُسْتَرَبِحَا الْقَلْبِ هَانَتَانِ (فَرَحَانَانِ).

وَسَيَكُونُ عُشُّنَا الْجَدِيدُ أَجْمَلَ مِنْ عُشِّ «أُمِّ هِنْدٍ»، وَأَرْوَحَ (أَطْيَبَ)!

(٣) فَرَحُ «أُمِّ سِنْدٍ»

فَهَشَّتْ «أُمُّ سِنْدٍ» لِرَوْجِهَا وَبَشَّتْ (ارْتَاَحَتْ وَنَشِطَتْ)، وَصَفَّقَتْ بِجَنَاحَيْهَا مُبْتَهَجَةً بِهَذَا الْمَكَانِ الْحَرْبِ. وَنَسِيَتْ كُلَّ مَا حَزَنَهَا مِنْ «أُمِّ هِنْدٍ»، وَتَحَوَّلَ أَلْمُهَا أَنْسًا وَسُرُورًا، وَانْقَلَبَ تَرَحُّهَا فَرَحًا وَحُبُورًا. ثُمَّ قَالَتْ لِرَوْجِهَا رَاضِيَةً، قَرِيرَةً الْعَيْنِ: «مَا أَبْعَدَ نَظْرَكَ، وَمَا أَعْظَمَ تَوْفُقَكَ! فَإِنَّ أَوْلَادَنَا الصُّغَارَ لَنْ يَتَعَرَّضُوا لِلرَّيْحِ، فِي هَذِهِ الْغُرْفَةِ الْهَادِئَةِ الْجَمِيلَةِ..»

(٤) غِنَاءُ الْخُطَّافَيْنِ

فَعَرَّدَ الْخُطَّافَانِ تَغْرِيدَةً عَذْبَةً مُسْتَمْلَحَةً (أَغْنِيَةً بِهِجَةً)، بِصَوْتَيْهِمَا الرَّقِيقِ. وَغَنَى «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» فَرَحًا بِهَذَا الْفَوْزِ النَّادِرِ: «وَيْتٌ وََيْتٌ، وََيْتٌ وََيْتٌ هَذَا عُشِّي، فِيهِ أَيْتٌ وََيْتٌ وََيْتٌ، غَنَى غَنَى لَنْ يَكْذِبَنِي — أَبَدًا — ظَنِّي..»

(٥) بِنَاءُ الْعُشِّ

ثُمَّ كَفَّ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» عَنْ غِنَائِهِ فَجَاءَهُ، وَوَقَفَ عَنِ التَّغْرِيدِ بَعْتَةً. وَعَنَّتْ (خَطَرَتْ) لَهُ فِكْرَةُ طَارِئَةٍ، فَقَالَ «لَأُمِّ سِنْدٍ» زَوْجِهِ: «أَتَعْرِفِينَ فِي أَيِّ شَيْءٍ أَفَكَّرْتُ، يَا عَزِيزَتِي؟ إِنِّي لَأَفَكِّرُ فِي انْتِهَازِ الْفُرْصَةِ السَّانِحَةِ (الَّتِي تَعْرِضُ لِي) فَهَلْ أَنْتِ بَادِئَةٌ بِبِنَاءِ الْعُشِّ الْآنَ؟ إِنَّ الْوَقْتَ صَحُوٌّ (خَالِيَةٌ سَمَاوُهُ مِنَ السُّحُبِ)، وَالشَّمْسُ مُشْرِقَةٌ، وَالْأَرْضُ جَافَّةٌ، وَفِي قُدْرَتِنَا أَنْ نَبْدَأَ الْعَمَلَ الْآنَ. فَمَاذَا أَنْتِ قَائِلَةٌ؟»
فَقَالَتْ «أُمِّ سِنْدٍ»: «صَدَقْتَ يَا عَزِيزِي، فَهَلُمَّ (تَعَالَى) إِلَى الْعَمَلِ!»

(٦) مَوَادُّ الْبِنَاءِ

ثُمَّ هَبَطَ الْخُطَّافَانِ إِلَى الْأَرْضِ، وَمَلَأَ كُلَاهُمَا مِنْقَارُهُ تُرَابًا وَحَشَائِشَ، لِيَبْنِيَا الْعُشَّ.
ثُمَّ قَالَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» لِرَوْجِهِ: «لَا يَفُوتَنَّكَ — يَا عَزِيزَتِي «أُمِّ سِنْدٍ» — أَنْ تُبْلِي هَذَا التُّرَابَ بِلُعَابِكَ (بِمَا يَسِيلُ مِنْ فَمِكَ) — كَمَا كَانَ يَصْنَعُ أَبَوَانَا حِينَ يَشْرَعَانِ فِي بِنَاءِ وَكْرِيهِمَا (عُشْيِهِمَا) — فَلَنْ يَسْتَمْسِكَ الْبِنَاءُ بِغَيْرِ هَذَا..»

فَقَالَتْ «أُمُّ سِنْدٍ»: «صَدَقْتَ، يَا عَزِيزِي!»
ثُمَّ أَلْقَيَا مَا حَمَلَاهُ عَلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْخَشَبِ، بَعْدَ أَنْ بَلَّلَاهُ بِرِيقِهِمَا.
وَلَقَدْ كَانَ عَمَلُهُمَا شَاقًّا مُضْنِيًّا، وَلَكِنْ مَا أُوتِيَهُ الْخُطَّافُ — مِنَ الصَّبْرِ وَالْمُتَابَرَةِ —
هُوَ سِرُّ نَجَاحِهِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الْمُرْهَقَةِ (الْمُتْعَبَةِ).

(٧) مُنَابَرَةُ الْخُطَّافَيْنِ

وَلَمَّا أَمْسَيَا، جَلَسَا يَسْمُرَانِ (يَتَحَدَّثَانِ لَيْلًا)، عَلَى الشُّرْفَةِ الْعُلْيَا مِنَ النَّافِذَةِ الْمُهْجُورَةِ،
وَيَتَمَنَّيَانِ الْأَمَانِيَّ الْجَمِيلَةَ، وَيُعَرِّدَانِ (يُغَنِّيَانِ) مَسْرُورَيْنِ، وَقَدْ شَعَرَا بِالسَّعَادَةِ تَمَلُّاً
قَلْبِيَّيْهِمَا، لِأَنَّهُمَا قَضَيَا نَهَارَهُمَا كُلَّهُ فِي الْعَمَلِ النَّافِعِ، وَلَمْ يَتْرُكَا لَحْظَةً بِلَا جَدْوَى (بِغَيْرِ
فَائِدَةٍ). وَدَارَتْ بَيْنَهُمَا أَسْمَارٌ مُعْجَبَةٌ؛ فَتَحَدَّثَا عَنْ أَفْرَاحِهِمَا الْمَرْجُوءَةِ (أَبْنَائِهِمَا الَّتِي يُؤْمَلَانِ
فِيهَا)، وَكَيْفَ يَتَعَهَّدَانَهَا بِالتَّنَشِئَةِ وَالتَّرْبِيَةِ، وَأَيَّ الْأَسْمَاءِ الْجَمِيلَةِ يَخْتَارَانِ لَهَا؟
ثُمَّ أَسْلَمَا أَجْفَانَهُمَا الصَّغِيرَةَ لِلرُّقَادِ، وَرَاحَا فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ.

(٨) يَوْمٌ مَاطِرٌ

وَلَمَّا بَدَأَ أَوَّلُ شُعَاعٍ مِنَ أَشْعَةِ الشَّمْسِ، أَخْرَجَتْ «أُمُّ سِنْدٍ» رَأْسَهَا مِنْ تَحْتِ جَنَاحِهَا،
وَعَيْنَاهَا لَا تَزَالَانِ فَاتِرَتَيْنِ (سَاكِتَتَيْنِ) — مِنْ أَثَرِ النَّوْمِ — ثُمَّ أَيْقَظَتْ زَوْجَهَا «عُصْفُورَ
الْأَمَانَةِ»، وَهِيَ تَقُولُ: «مَا أَشَدَّ تَعَاسَتَنَا فِي هَذَا الْيَوْمِ، أَيُّهَا الزَّوْجُ الْعَزِيزُ! لَقَدْ هَطَلَتِ الْأَمْطَارُ
طُولَ اللَّيْلِ، وَامْتَلَأَتِ الْأَرْضُ كُلُّهَا بِالْوَحْلِ. وَلَيْسَ فِي قُدْرَتِنَا أَنْ نَعْمَلَ شَيْئًا طَوْلَ يَوْمِنَا هَذَا.

(٩) فِرَاسَةُ الْخُطَّافِ

وَلَقَدْ صَدَقَتْ فِرَاسَتِي أَمْسٍ، حِينَ نَبَّهْتُكَ إِلَى الطُّيُورِ، وَهِيَ تَطِيرُ عَلَى مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ
الْأَرْضِ.»

(١٠) أمطار الربيع

فَقَالَ لَهَا «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ»، وَكَانَ — كَمَا قُلْنَا — آيَةً فِي الدَّمَائَةِ (غَايَةً فِي اللَّيْلِ وَالرَّفَقِ) وَحُسْنِ الْخُلُقِ: «لَا عَلَيْكَ (لَنْ يُصِيبَكَ أَدَّى)، يَا عَزِيزَتِي. فَلْنَسْتَرِحِ الْيَوْمَ إِذَا لَمْ يَكُفَّ الْمَطَرُ عَنِ الْهَطُولِ. عَلَى أَنَّ السُّحْبَ سَتَنْقَشِعُ بَعْدَ قَلِيلٍ؛ فَإِنَّ أَمْطَارَ الرَّبِيعِ — فِيمَا حَدَّثْتَنِي أُمِّي — لَا تَلْبَثُ إِلَّا وَقْتًا يَسِيرًا.»

(١١) أيام الغيم

وَصَمَتَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» لَحْظَةً، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ قَائِلًا: «انْظُرِي يَا عَزِيزَتِي. لَقَدْ خَفَّ الْمَطَرُ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا رِذَاذُ (مَطَرٌ ضَعِيفٌ) يَتَحَدَّرُ نَقْطًا رَفِيعَةً مُتَلَالِئَةً فِي الْفَضَاءِ. وَلَقَدْ طَالَ شَوْقُنَا إِلَى ذَلِكَ الْمَنْظَرِ الْأَخَازِ؛ فَإِنَّا — كَمَا تَعْلَمِينَ — قَدْ لَبِثْنَا فِي رِحْلَتِنَا زَمَنًا طَوِيلًا، دُونَ أَنْ نَنَعَمَ بِرُؤْيَا الْمَطَرِ، وَالسَّمَاءِ الْغَائِمَةِ، وَالسُّحْبِ الْكَثِيفَةِ (الْغَلِيظَةِ) الْمَلْبَدَةِ (الْمُلْتَصِقِ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ).»

(١٢) انقطاع المطر

وَبَعْدَ قَلِيلٍ انْقَطَعَ الْمَطَرُ، وَصَحَّتْ فِرَاسَةُ «عُصْفُورِ الْأَمَانَةِ». فَاسْتَأْنَفَ — هُوَ وَزَوْجُهُ — عَمَلَهُمَا بِهِمَّةً وَنَشَاطٍ، وَأَقْبَلَا عَلَى عَشَّهِمَا يَبْنِيَانِهِ جَادَّيْنِ. وَمَا زَالَا يُثَابِرَانِ عَلَى الْعَمَلِ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ كَامِلَةً — مِنَ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ إِلَى الْمَسَاءِ — حَتَّى أَتَمَّا بِنَاءَ الْعُشِّ، وَفَوْقَ مَا يُرِيدَانِ، وَأَثَّاهُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْحَشَائِشِ وَرِيشِ الطُّيُورِ.

الفصل الثالث

(١) أغاريدُ السُّرورِ

وَلَا تَسَلْ — أَيُّهَا الْقَارِئُ الْعَزِيزُ — عَنْ مِقْدَارِ سُرُورِ «أُمِّ سِنْدٍ» وَابْتِهَاجِ زَوْجِهَا «عُصْفُورِ الْأَمَانَةِ»، حِينَ أَنْجَزَا عَمَلَهُمَا الشَّاقَّ. وَقَدْ أَنْسَاهُمَا الْقَوْرُ وَالنَّجَاحُ مَا عَانِيَاهُ فِي بِنَاءِ الْعُشِّ؛ فَظَلَّ يَطِيرَانِ حَوْلَهُ هَاتِفَيْنِ، وَيُحَلِّقَانِ صَائِحَيْنِ. وَاسْتَوَلَى عَلَيْهِمَا الْفَرَحُ؛ فَزِدَّداً أَغَارِيدَ الْغِبْطَةِ وَالسُّرُورِ.

(٢) اسْتِحْمَامُ الْخَطَّافَيْنِ

ثُمَّ ذَكَرَا أَنَّهُمَا جَدِيرَانِ بِالنَّظَافَةِ وَالْإِغْتِسَالِ؛ فَأَسْرَعَا — عَلَى عَادَتِهِمَا كُلِّ يَوْمٍ — إِلَى غَدِيرِ صَافِي الْمَاءِ، فَاسْتَحَمَا فِيهِ، وَغَمَرَا صَدْرَيْهِمَا فِي مَائِهِ فَرِحَانَيْنِ، وَظَلَّا يُرْفِرَفَانِ بِأَجْنِحَتَيْهِمَا مُبْتَهَجَيْنِ. ثُمَّ طَارَا إِلَى سِلْكِ بَرْقِيٍّ، فَجَنَّمَا عَلَيْهِ، لِيَجْفُفَا جِسْمَيْهِمَا الْمُبَلَّلَيْنِ بِالْمَاءِ.

(٣) حُبُّ الْوَطَنِ

وَكَانَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» يَشْعُرُ بِالرَّاحَةِ وَالسَّعَادَةِ، بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ وَاجِبُهُ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ. وَدَارَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ «أُمِّ سِنْدٍ» شَتَّى الْأَحَادِيثِ وَالذِّكْرِيَّاتِ، فَقَالَ لَهَا فِيمَا قَالَ: «أَتَذْكُرِينَ — يَا «أُمِّ سِنْدٍ» — كَيْفَ كَانَتْ حَيَاتُنَا مُوحِشَةً كَثِيبَةً فِي غُرْبَتِنَا عَنْ وَطَنِنَا الْمَحْبُوبِ؟ وَكَيْفَ اشْتَدَّ حَنِينُنَا — فِي تِلْكَ الْهَجْرَةِ الْبَعِيدَةِ — إِلَى رُؤْيَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ الْعَالِيَةِ، وَالتَّمَتُّعِ بِالنَّظَرِ

إِلَى هَذِهِ الْبَحِيرَةِ الزَّرْقَاءِ؟ لَقَدْ وَلَدْنَا هُنَا — يَا «أُمُّ سِنْدٍ» — وَتَعَارَفْنَا جَمِيعًا فِي جَنَبَاتِ هَذِهِ الرَّحَابِ، وَامْتَلَأَتْ نُفُوسُنَا بِذِكْرِيَّاتِ هَذَا الْبَلَدِ الْحَبِيبِ إِلَيْنَا.
فَلَا عَجَبَ إِذَا اشْتَدَّ حَنِينُ قَلْبَيْنَا، وَهَفَّتْ إِلَيْهِ خَوَاطِرُ كِلَيْنَا.
فَقَالَتْ «أُمُّ سِنْدٍ»: «صَدَقْتَ — أَيُّهَا الزَّوْجُ الْعَزِيزُ — فَإِنَّ حُبَّ الْوُطَنِ يَمْلَأُ قَلْبِي حَنِينًا إِلَيْهِ، وَلَيْسَ أَرْوَحَ لِنَفْسِي مِنْ هَذَا الْبَلَدِ الَّذِي نَشَأْتُ فِيهِ. وَلَيْسَ يَعْدِلُهُ فِي حُسْنِهِ بَلَدٌ آخَرُ، بَالِغًا مَا بَلَغَ مِنَ الْحُسْنِ وَالرَّوْعَةِ وَالْبَهَاءِ. وَلَكِنْ تَسْتَطِيعُ بِلَادُ الدُّنْيَا قَاطِبَةً أَنْ تُسْلِيَنِي عَنْ هَذَا الْوُطَنِ الْحَبِيبِ، أَوْ تُذْهِلَنِي عَنْهُ (تُنْسِيَنِي إِيَّاهُ).»

(٤) ذِكْرِيَّاتُ الْهَجْرَةِ

وَمَا أَتَمَّتْ «أُمُّ سِنْدٍ» قَوْلَهَا، حَتَّى هَاجَتْهَا (أَثَارَتْ نَفْسَهَا) ذِكْرِيَّاتُ الْهَجْرَةِ؛ فَدَمَعَتْ عَيْنَاهَا، حَزْنًا عَلَى فِرَاقِ الْوُطَنِ فِي زَمَنِ الْخَرِيفِ الْقَادِمِ.

وَلَا تَعَجَبْ — أَيُّهَا الْقَارِئُ الذَّكِيُّ — مِنْ حَنِينِ الطُّيُورِ إِلَى أَوْطَانِهَا؛ فَإِنَّ الْوُطْنَ حَبِيبٌ إِلَى نَفْسِ كُلِّ مَنْ يَعْيشُ فِيهِ مِنْ طَيْرٍ وَحَيَوَانٍ، كَمَا هُوَ حَبِيبٌ إِلَى نَفْسِكَ وَإِلَى نُفُوسِ غَيْرِكَ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ. وَقَدِيمًا قَالَ «أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ الرَّوْمِيِّ» الشَّاعِرُ الْمُبْدِعُ، مُنْذُ أَلْفٍ وَمِئَتَيْنِ مِنَ السِّنِينَ:

«وَلِي وَطَنٌ أَلَيْتُ إِلَّا أَبِيعَهُ وَلَا أَرَى غَيْرِي لَهُ — الدَّهْرَ — مَالِكًا
وَحَبَّبَ أَوْطَانُ الرِّجَالِ إِلَيْهِمْ مَارَبُّ قَضَاهَا الشَّبَابُ هُنَالِكَ
إِذَا ذَكَرُوا أَوْطَانَهُمْ، ذَكَرَتْهُمْ عُهْدَ الصَّبَا فِيهَا، فَحَنُّوا لِذَلِكَ.»

(٥) نَوْمُ الْخُطَّافَيْنِ

وَلَقَدْ بَدَلَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» قُصَارَى جُهْدِهِ فِي تَسْلِيَةِ «أُمِّ سِنْدٍ»، وَتَهْوِينِ أَمْرِ الْهَجْرَةِ عَلَيْهَا، وَقَالَ لَهَا فِيمَا قَالَ: «إِنَّ أَمَامَنَا كَثِيرًا مِنَ الْمَبَاهِجِ وَجَالِبَاتِ السُّرُورِ، قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ الشِّتَاءُ. وَلَا تَزَالِ عِنْدَنَا فُسْحَةٌ مِنَ الْوَقْتِ تُخَفِّفُ مِنَ آلامِ الْهَجْرَةِ — يَا «أُمُّ سِنْدٍ» —

الفصل الثالث

فَلَا تَجْزَعِي، وَلَا يَشْغَلْ بِأَلِكِ شَيْءٌ الْآنَ، وَلِنَنْعَمَ بِالرُّقَادِ (لِنَسْتَمْتِعَ بِالنَّوْمِ) هَنِيئًا فِي عُشِّنَا الْجَدِيدِ.»

وَمَا زَالَ يُرَفِّهُ (يُخَفِّفُ) عَنْهَا، حَتَّى أَنْسَاهَا مَا شَعَرَتْ بِهِ مِنَ الْأَلَمِ، وَاسْتَسَلَمَتْ لِلرُّقَادِ، فَنَامَتْ، وَنَامَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» إِلَى الصَّبَاحِ.

(٦) أَوْلَادُ «أُمِّ سِنْدٍ»

وَلَمَّا جَاءَ الْعَدُوُّ، لَمْ تَبْرَحْ «أُمُّ سِنْدٍ» عُشَّهَا. وَمَرَّتْ أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ، وَهِيَ شَدِيدَةُ الْفَرَحِ بِبَيْضَاتِهَا الْأَرْبَعِ الْأُولَى، الَّتِي وَضَعَتْهَا فِي عُشِّهَا، وَهِيَ بَيْضَاتٌ صَغِيرَةٌ، بِهَا نَقَطٌ شَقْرٌ وَسُمْرٌ. وَقَدْ بَاضَتْهَا «أُمُّ سِنْدٍ» فَوْقَ الرِّيشِ الَّتِي فِي عُشِّهَا. وَكَانَتْ «أُمُّ سِنْدٍ» تَرْقُدُ عَلَيْهَا حَانِيَةً، مُشْفِقَةً (حَائِقَةً) أَنْ يُصِيبَهَا أَقْلٌ سَوْءٌ.

(٧) طَعَامُ الْخُطَافِ

وَكَانَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» يَذْهَبُ مُنْفَرِدًا إِلَى الْخَارِجِ، لِيَجِيبَهَا بِالْقُوْتِ، وَلَا يَدَّخِرُ وَسْعًا فِي جَلْبِ الذَّبَابِ الصَّغِيرِ، وَالْحَشَرَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ اللَّتِي تَسْتَطِيبُهَا زَوْجُهُ.

(٨) أَرْبَعَةُ مَنَاقِيرَ

وَمَا زَالَ يَتَعَهَّدُهَا، حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْعُشِّ أَرْبَعَةُ مَنَاقِيرَ كَبِيرَةٍ وَهَكَذَا امْتَلَأَتِ الْعُزْفَةُ بِهَذَا النَّسْلِ النَّجِيبِ. وَفَرِحَ الْأَبَوَانِ بِصِيحَاتِ أَوْلَادِهِمَا الْأَعْرَاءِ، وَظَلَا يَتَعَهَّدَانِهَا بِالتَّنَشُّئَةِ (التَّرْبِيَةِ) حَتَّى تَمَّ لَهُمَا مَا أَرَادَاهُ.

(٩) حِوَارُ الْإِخْوَةِ

وَصَاحَ «زَوَّارُ الْهِنْدِ» — ذَاتَ يَوْمٍ — وَهُوَ أَكْبَرُ أَبْنَاءِ أَبِيهِ سِنًا: «لَقَدْ مَشَيْتُ عَلَى رِجْلِي يَا أَخِي، وَسَأُحَدِّثُ أَبِي بِهَذَا النَّبَأِ حِينَ يَعُودُ إِلَيْنَا.»

فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ «رَوَّارُ السُّنْدِ»: «خَفِّضْ مِنْ صَوْتِكَ — يَا أَخِي — فَقَدْ كُذِّتَ تَخْرِقُ أَدَانَنَا بِصُرَاخِكَ!»

فَقَالَتْ «سُنُونِيَّةٌ» لِإِخْوَتَيْهَا: «لَقَدْ غَابَ أَبِي، كَمَا غَابَتْ أُمِّي، فِي هَذَا النَّهَارِ. فَمَتَى يَعودَان؟»

فَأَجَابَتْهَا «جُحَيْجِيَّةٌ» وَهِيَ تَبْكِي: «صَدَقْتِ، يَا أُخْتِي. وَلَقَدْ اشْتَدَّ انْزِعَاجِي لِغَيْبَتَيْهِمَا، وَلَمْ نَتَعَوَّدْ مِنْهُمَا ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ. وَأَخْشَى مَا أَخْشَاهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَهُمَا مَكْرُوهٌ، أَوْ يَكُونَا — لَا قَدَرَ اللَّهُ — قَدْ مَاتَا.»

(١٠) قُدُومُ الْأَبَوَيْنِ

وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ سَمِعَ الْأَطْفَالُ الصَّغَارُ حَرَكَةَ خَفِيفَةٍ.
فَصَاحَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ: «أَبِي! أُمِّي! عَجَلًا بِالْحُضُورِ؛ فَإِنِّي جَائِعٌ!»
ثُمَّ قَالَ «رَوَّارُ الْهِنْدِ»: «غَرِيبٌ أَنْ يَغِيبَ أَبَوَانَا عَنَّا، طُولَ هَذَا الْوَقْتِ!»
وَلَمْ يَتِمَّ كَلِمَتُهُ، حَتَّى صَاحَ «رَوَّارُ السُّنْدِ» وَ«سُنُونِيَّةٌ» وَ«جُحَيْجِيَّةٌ»، مَسْرُورِينَ: «وَا فَرَحَتَاهُ! لَقَدْ جَاءَ أَبَوَانَا الْعَزِيزَانِ، فَمَا أَسْعَدَنَا بِمَقْدَمِهِمَا، (حُضُورِهِمَا)!»

(١١) زَادَ الْخَطَاطِيفِ

وَكَانَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ» وَ«أُمُّ سِنْدٍ» قَدْ أَحْضَرَا فِي مَنَقَارَيْهِمَا زَادَ أَوْلَادِهِمَا (طَعَامَهُمْ)، فَقَالَا: «لَبِيبُكُمْ — أَيُّهَا الْأَعْزَاءُ — فَقَدْ جِئْنَا، وَمَعَنَا مَا تَشْتَهُونَ مِنْ لَذَائِدِ الْأَطْعِمَةِ.»
وَفَتَحَ الْأَوْلَادُ مَنَاقِيرَهُمْ، وَتَهَافَتُوا عَلَى الطَّعَامِ — فِي شَرِّهِ عَجِيبٍ — حَتَّى شَبِعُوا.
ثُمَّ أَغْمَضُوا أَعْيُنَهُمْ مُتَهَيِّئِينَ (مُسْتَعِدِّينَ) لِلنَّوْمِ مَسْرُورِينَ.

الفصل الرابع

(١) حَادِثُ مُفَاجِئٍ

فَقَالَتْ «أُمُّ سِنْدٍ»: «لَعَلَّكُمْ — أَيُّهَا الْأَعْرَاءُ — لَبِثْتُمْ (مَكْتَنُّم) عُقْلَاءَ رَاشِدِينَ، فِي أَثْنَاءِ غَيْبَتِنَا الطَّوِيلَةِ. وَمَا أَظُنُّكُمْ تَعْرِفُونَ السِّرَّ فِي إِبْطَائِنَا عَلَيْكُمْ. فَقَدْ حَدَّثَ لَنَا مَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُسْبَانِ (وَقَعَ لَنَا مَا لَمْ يَكُنْ يَدُورُ فِي أَنْفُسِنَا، وَعَرَضَ لَنَا مَا لَمْ نَظْنُهُ وَلَمْ نَتَوَقَّعْ حُدُوثَهُ).»

(٢) قِصَّةُ «أُمِّ هِنْدٍ»

فَفَتَحَ الصَّغَارُ أَعْيُنَهُمْ، وَطَارَ النَّوْمُ مِنْ أَجْفَانِهِمْ، وَأَقْبَلُوا عَلَى أُمِّهِمْ يَسْتَمِعُونَ إِلَى حَدِيثِهَا مُنْصِتِينَ، فِي لَهْفَةٍ بِالْغَةِ، وَشَوْقٍ شَدِيدٍ.
فَقَالَتْ لَهُمْ «أُمُّ سِنْدٍ»: «إِنِّي قَاصَّةٌ عَلَيْكُمْ مَا حَدَّثَ لَنَا مِنَ الْعَجَائِبِ، بَعْدَ أَنْ تُفْسِحُوا لَنَا مَكَانًا فِي الْعُشِّ؛ فَقَدْ جَهَدْنَا النَّعْبُ..»

فَالْتَصَقَ الصَّغَارُ، بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَفَسَحُوا لِأَبْوَيْهِمْ مَكَانَيْنِ فِي عُشِّهِمُ الصَّغِيرِ.

(٣) صَوْتُ اسْتِغَاثَةٍ

ثُمَّ قَالَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ»: «قُصِّي عَلَيْهِمُ الْقِصَّةَ — يَا «أُمُّ سِنْدٍ» — فَإِنَّكَ أَطْلُقُ مِنِّي لِسَانًا، وَأَدُقُّ وَصْفًا، وَأَحْسَنُ بَيَانًا!»

فَأَنْشَأَتْ «أُمُّ سِنْدٍ» تَقُولُ: «أَصْغُوا إِلَيَّ، أَيُّهَا الْأَعْرَاءُ: لَقَدْ كُنْتُ مَارَّةً — فِي أَنْثَاءِ طَيْرَانِي — عَلَى مَنْزِلٍ كَبِيرٍ؛ فَسَمِعْتُ — فَجَاءَ — صَوْتًا يَرِنُ فِي أَجْوَاзِ الْفَضَاءِ (فِي طَبَقَاتِ الْجَوِّ): «أَغِيثُونِي! أَدْرِكُونِي!»

(٤) مَنْظَرُ هَائِلٌ

فَرَحْتُ أَجُولُ بِبَصْرِي — فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاجِي الْفَضَاءِ — فَلَمْ أَرْ شَيْئًا. وَجَنَّمْتُ عَلَى سَطْحِ الْمَنْزِلِ؛ فَلَمْ أَبْصُرْ كَائِنًا كَانَ.
فَعَوَّلْتُ عَلَى الْمُضِيِّ فِي سَبِيلِي. وَبَيْنَا أَنَا طَائِرَةٌ فِي طَرِيقِي إِلَيْكُمْ، إِذْ أَبْصَرْتُ مَا فَرَعَنِي وَهَالَنِي (رَعَبَنِي)، وَمَلَأَ قَلْبِي أَسَى وَحُزْنًا.
أَتَعْرِفُونَ أَيَّ هَوْلٍ رَأَيْتُ؟
رَأَيْتُ خُطَافًا صَغِيرًا شُدَّتْ رِجْلُهُ إِلَى خَيْطٍ مُعَلَّقٍ فِي الْفَضَاءِ، وَرَأْسُهُ مُنْكَسٍ إِلَى أَسْفَلِ، وَهُوَ يُحَاوِلُ الْخَلَاصَ فَلَا يَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَيَبْسُطُ جَنَاحَيْهِ مَا اسْتَطَاعَ؛ فَلَا يَظْفَرُ بِطَائِلٍ (لَا يَنَالُ فَائِدَةً)، وَيَهْمُ بِالطَّيْرَانِ، فَيَرْجِعُهُ الْخَيْطُ إِلَى الْوَرَاءِ؛ فَيَعُوْثُ (يَطْلُبُ الْمَعُونَةَ) مُسْتَنْجِدًا؛ فَلَا يُنْجِدُهُ أَحَدًا.

(٥) حُزْنُ الْأَفْرَاحِ

وَمَا وَصَلَتْ «أُمُّ سِنْدٍ» إِلَى هَذَا الْحَدِّ مِنْ قِصَّتِهَا، حَتَّى امْتَلَأَتْ قُلُوبُ أَفْرَاحِهَا الصَّغَارِ فَرَعًا وَرُعْبًا، وَإِشْفَاقًا عَلَى ذَلِكَ الْخُطَافِ التَّاعِسِ الْمُسْكِينِ. وَتَأَلَّمَتْ لَهُ «سُنُونِيَّةٌ» وَ«جُحَيْجِيَّةٌ» وَ«زَوَّارُ الْهِنْدِ» وَ«زَوَّارُ السِّنْدِ»، وَعَقَدَ الْخَوْفُ أَلْسِنَتَهُمْ، وَبَدَأَ عَلَى سِيْمَاهُمْ (ظَهَرَ عَلَى مَرَأَهُمْ) الْأَلَمُ وَالْحُزْنُ، وَأَرْهَفُوا آذَانَهُمْ لِسَمَاعِ بَقِيَّةِ الْقِصَّةِ.



(٦) نَكْبَةُ «أُمِّ هِنْدٍ»

فَاسْتَأْنَفْتُ «أُمَّ سِنْدٍ» حَدِيثَهَا، قَائِلَةً: «لَقَدْ عَرَفْتُهَا مِنْ صَوْتِهَا — أَيُّهَا الْأَعْرَاءُ — وَأَدْرَكْتُ أَنَّهَا صَدِيقَتِي «أُمُّ هِنْدٍ»، الَّتِي طَالَمَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْهَا، وَذَكَرْتُ لَكُمْ أَنَّهَا اغْتَصَبَتْ عُسْنًا، بَعْدَ أَنْ أَوْرَثْتَنَاهُ ابْنَةً عَمِّي، وَهُوَ فِي مَخْرَنِ الْغَلَالِ الْقَدِيمِ.

(٧) صَفْحُ الْكَرِيمِ

وَلَمَّا عَرَفْتُهَا، طَافَتْ بِرَأْسِي فِكْرَةَ الْإِنْتِقَامِ مِنْهَا.
وَهَمَمْتُ بِتَرْكِهَا وَحِيدَةً فِي هَذَا الْمَازِقِ، جَزَاءً لَهَا عَلَى مَا أَسْلَفْتُ (مَا قَدَّمْتُ) مِنْ بَغْيٍ
وَعُدْوَانٍ وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا نَسِيتُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ الْخَاطِئَةَ، وَصَفَحْتُ عَنْ زَلَّةِ صَدِيقَتِي، وَغَفَرْتُ

لَهَا عِنَادَهَا، وَذَكَرْتُ أَنَّ الْأَخَوَاتِ جَدِيرَاتٌ أَنْ يَتَنَاسَيْنَ الْإِسَاءَاتِ، وَيَذْكُرْنَ الْحَسَنَاتِ، لَا سِيَّمَا فِي الشَّدَائِدِ وَالْمَارِقِ وَالْمِلَمَاتِ.

(٨) أَسْرَابُ الْخَطَاطِيفِ

فَامْتَلَأَ قَلْبِي بِالرَّحْمَةِ لَهَا، وَالْعُطْفِ عَلَيْهَا، وَصَحْتُ — بِأَعْلَى صَوْتِي مُغَوِّثَةً (مُسْتَنْجِدَةً) بِأَصْدِقَائِي مِنَ الْخَطَاطِيفِ. فَلَبَّيْنِ دُعَائِي — فِي الْحَالِ — وَغَصَّ الْفَضَاءُ بِأَسْرَابِهِنَّ (امْتَلَأَ بِجَمَاعَاتِهِنَّ)، وَضَاقَ بِهِنَّ عَلَى رُحْبِهِ (بِرَغَمِ اتِّسَاعِهِ).

(٩) نَصِيحَةُ عَجُوزٍ

فَصَحْتُ فِيهِنَّ قَائِلَةً: «هَآئِنْتُ أَوْلَاءَ تَرَيْنَ مَا أَصَابَ أُخْتُكَنَّ «أُمُّ هِنْدٍ»، فَخَبِّرْنِي: كَيْفَ نَصْنَعُ لِإِنْقَادِهَا؟»

فَقَالَتْ خُطَافُ عَجُوزٌ مَجْرِبَةٌ، اجْتَارَتْ الْبَحْرَ الْكَبِيرَ أَكْثَرَ مِنْ سِتِّ مَرَّاتٍ: «الرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ نَطِيرَ جَمِيعًا، وَنَصِيحَ بِأَعْلَى أَصَوَاتِنَا لِنُنَادِيَ «عِصَامًا»: ذَلِكَ الصَّبِيُّ الْمُهَذَّبُ الطَّيِّبُ الْقَلْبُ؛ لِيُنْقِذَ هَذِهِ الْأُخْتَ الْعَزِيزَةَ. وَمَا أَظُنُّهُ إِلَّا مُلَبِّيًا دُعَاءَنَا؛ فَهُوَ يُحِبُّنَا، وَيُعْطِفُ عَلَيْنَا، وَيَتَوَدَّدُ دَائِمًا إِلَيْنَا.»

فَقُلْتُ لَهَا: «صَدَقْتَ فِيمَا قُلْتَ — أَيَّتُهَا الْعَجُوزُ الْحَكِيمَةُ الْعَاقِلَةُ — وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ يَضِيعَ الْوَقْتُ سُدًى (بَلَا فَايِدَةً). وَهَا هِيَ ذِي «أُمُّ هِنْدٍ» تَكَادُ تَخْتَنِقُ، وَمَا أَظُنُّ «عِصَامًا» فِي بَيْتِهِ الْآنَ.»

فَقَالَتْ الْخَطَاطِيفُ الْآخَرُ: «صَدَقْتَ — يَا «أُمُّ سُنْدٍ» — فَمَاذَا تَرَيْنَ مِنْ وُجُوهِ الرَّأْيِ؟»

(١٠) تَعَبُ «أُمِّ سُنْدٍ»

وَلَمَّا بَلَغَتْ «أُمُّ سُنْدٍ» هَذَا الْحَدَّ مِنَ الْقِصَّةِ، شَعَرَتْ بِالتَّعَبِ. فَقَالَتْ لِزَوْجِهَا، بِصَوْتِ خَافِتٍ: «لَقَدْ أَصَابَنِي الْجَهْدُ وَالْإِغْيَاءُ، وَجَفَّ حَلْقِي، فَتَمَّمْ أَنْتَ لَهُمْ بَقِيَّةَ الْقِصَّةِ، أَيُّهَا الزَّوْجُ الْعَزِيزُ.»

(١١) الْمَنَاقِيرُ الصُّلْبَةُ

فَقَالَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ»: «لَقَدْ كَانَتْ أُمُّكُمْ — أَيُّهَا الْأَعَزَّاءُ — أَذْكَى خُطَافٍ رَأَيْتُهُ فِي حَيَاتِي. فَقَدْ صَاحَتْ فِي أَصْدِقَائِنَا قَائِلَةً: «الرَّأْيُ عِنْدِي — أَيُّهَا الْإِخْوَانُ — أَنْ نَقْطَعَ هَذَا الْخَيْطَ.»

فَقَالُوا لَهَا: «وَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى ذَلِكَ، يَا أُخْتَاهُ؟»
فَقَالَتْ لَهُمْ: «إِنَّ مَنَاقِيرَنَا صُلْبَةٌ مَتِينَةٌ — كَمَا تَعْلَمُونَ — فَلْنُسِرِعْ إِلَى الْخَيْطِ، وَلْنَضْرِبْهُ بِمَنَاقِيرِنَا — مُتَعَاكِبِينَ — ضَرْبَاتٍ قَوِيَّةٍ، حَتَّى نَقْطَعَهُ!»
فَصَاحَ الْخُطَاطِيفُ جَمِيعًا: «مَرَحَى لَكَ، أَتَيْتُهَا الذِّكْيَةُ الرَّشِيدَةُ! فَلْنَأْخُذْ بِرَأْيِ السَّيِّدِ.»

(١٢) «عُصْفُورُ الْجَنَّةِ»

وَجَاءَ «عُصْفُورُ الْجَنَّةِ» فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ؛ وَهُوَ زَوْجُ «أُمِّ هِنْدٍ» وَحَفِيدُ «أَبِي الْفِدَاءِ» الْمُلَقَّبُ «بِعُصْفُورِ الْفِرْدَوْسِ»، صَاحِبُ الْأَمِيرِ السَّعِيدِ، كَمَا تَعْلَمُونَ. فَتَجَلَّى أَمَامَنَا حُبُّهُ وَإِخْلَاصُهُ وَوَفَاؤُهُ لِرُؤُوسِهِ؛ وَقَدْ اقْتَرَبَ مِنْهَا مُتَوَدِّدًا، وَظَلَّ يُؤَسِّسُهَا (يُصَبِّرُهَا) وَيُطَمِّنُهَا، وَيُسْرِي عَنْ نَفْسِهَا، وَيُوَكِّدُ لَهَا قُرْبَ خَلَاصِهَا مِنَ الْمَازِقِ الْحَرِجِ.

(١٣) قَطْعُ الْخَيْطِ

وَلَقَدْ أَخَذَتْ نَفْسِي بِعَدِّ النَّقَرَاتِ وَإِحْصَائِهَا — لِأَنَّيَ وَجَدْتُ فِي هَذَا سَلْوَى وَتَعَزِيَةٍ — فَرَأَيْتُهَا قَدْ نَيْفَتْ (زَادَتْ) عَلَى الْمِئَةِ. ثُمَّ رَأَيْتُ «أُمِّ هِنْدٍ» تَثْبُ (تَنْطُ) وَثَبَةً قَوِيَّةً؛ فَتَقَطَّعَ الْخَيْطُ، وَتَنَطَّلَقَ مِنْ إِسَارِهَا، وَتَقَرَّرَ عَلَى سَطْحِ الْبَيْتِ!

(١٤) شُكْرُ «أُمِّ هِنْدٍ»

وَلَمَّا انْتَهَى بِهِ الْكَلَامُ إِلَى هَذِهِ الْخَاتِمَةِ السَّارَّةِ، فَرَحَ أَوْلَادُهُ بِخَلَاصِ «أُمِّ هِنْدٍ»، وَأَعْجَبُوا بِرَأْيِ أُمِّهِمُ السَّيِّدِ.

فَقَالَ لَهُمْ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ»: «وَلَوْ سَمِعْتُمْ شُكْرَ «أُمِّ هِنْدٍ» لِامُّكُمْ عَلَى صَنِيعِهَا (مَعْرُوفِهَا)، لَبَكَيْتُمْ مِنْ فَرْطِ التَّأَثُّرِ؛ فَقَدْ أَثْنَتَ عَلَيْهَا بِمَا هِيَ أَهْلُهُ.»
 ثُمَّ حَتَمَتْ تَنَاءَهَا قَائِلَةً: «لَنْ أَنْسَى لَكَ — مَا حَيَّيْتُ — ذَلِكَ الصَّنِيعَ الَّذِي تَفَضَّلْتَ بِهِ عَلَيَّ، وَلَنْ أَنْسَى لَكُمْ — يَا أَصْدِقَائِي — هَذَا الْعُطْفَ النَّبِيلَ طَوَّلَ عُمْرِي. فَقَدْ كُنْتُ — لَوْلَا عِنَايَتُكُمْ — هَالِكَةً، لَا مَحَالَةَ — وَمَا كُنْتُ أَذْرِي مَصِيرَ أَوْلَادِي مِنْ بَعْدِي!»

(١٥) خُطْبَةُ «عُصْفُورِ الْجَنَّةِ»

وَقَدْ بَكَى «عُصْفُورُ الْجَنَّةِ» حِينَ سَمِعَ كَلَامَ زَوْجِهِ؛ فَبَدَّلْنَا جُهْدَنَا فِي تَعَزِيَّتِهِ، وَتَهْوِينِ الْمُصَابِ عَلَيْهِ، حَتَّى سُرِّي عَنْهُ (كُشِفَ عَنْهُ الْهَمُّ)، وَسَكَنَ رُوعُهُ (اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ)، وَأَفْرَخَ رُوعُهُ (زَالَ عَنْهُ رُعبُهُ وَذَهَبَ خَوْفُهُ).
 ثُمَّ صَعِدَ إِلَى ذِرْوَةِ السَّطْحِ، وَشَكَرَ لَنَا صَنِيعَنَا شُكْرًا بَلِيغًا يَدُلُّ عَلَى الْمَعِيَّةِ نَادِرَةٍ.
 وَقَدْ حَتَمَ خِطَابَهُ الرَّائِعَ بِقَوْلِهِ: «... فَلَكُمْ مِنَّا — أَيُّهَا الْأَعَزَّاءُ الْأَصْفِيَاءُ — حُبًّا خَالِصًا، واعترفنا بِفَضْلِكُمْ إِلَى الْأَبَدِ.»
 وَقَدْ حَيَّنَّاهُ عَلَى بِلَاغَتِهِ أَحْسَنَ تَحِيَّةٍ. ثُمَّ سَارَ «عُصْفُورُ الْجَنَّةِ» مَعَ «أُمِّ هِنْدٍ» — بَعْدَ أَنْ وَدَّعَانَا — شَاكِرَيْنِ!
 فَصَاحَ الْأَفْرَاحُ الصَّغَارُ مُعْجِبِينَ بِمَا سَمِعُوا: «يَا لَهَا مِنْ قِصَّةٍ شَائِقَةٍ! فَشُكْرًا لَكُمَا، أَيُّهَا الْوَالِدَانِ الْعَزِيزَانِ!»

الفصل الخامس

(١) قصة «أبي الفداء»

فَقَالَ «زَوَّارُ الْهِنْدِ»: «لَقَدْ أَخْبَرْتَنَا أَنَّ «أَبَا الْفِدَاءِ» — الْمُلَقَّبَ بِـ «عُصْفُورِ الْفُرْدَوْسِ» جَدَّ «عُصْفُورِ الْأَمَانَةِ» — كَانَ صَدِيقًا لِتَمَثَّالِ الْأَمِيرِ السَّعِيدِ، وَقُلْتُ لَنَا إِنَّهُ كَانَ مَضْرِبَ الْمَثَلِ فِي الْإِيثَارِ وَالْوَفَاءِ. وَلَكِنَّكَ نَسِيتَ أَنْ تَقْضِيَ إِلَيْنَا (تُخْبِرَنَا) بِقِصَّتِهِ، أَوْ تَذْكَرَ لَنَا شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِهِ!»

(٢) دُيُوعُ الْقِصَّةِ

فَقَالَ «عُصْفُورُ الْأَمَانَةِ»: «صَدَقْتَ، يَا وَلَدِي الْعَزِيزَ. لَقَدْ فَاتَنِي ذَلِكَ، وَلِي مَوْفُورُ الْعُدْرِ إِذَا نَسِيتُ؛ فَقَدْ حِيلَ إِلَيَّ — لِكثْرَةِ مَا سَمِعْتُ هَذِهِ الْقِصَّةَ — أَنَّ كُلَّ مَنْ فِي الْعَالَمِ، مِنْ طَيْرٍ وَحَيَوَانٍ وَحَشَرَةٍ وَإِنْسَانٍ، عَلَى عِلْمٍ بِهِذِهِ الْقِصَّةِ. وَنَسِيتُ أَنَّكَ وَإِخْوَتَكَ حَدِيثُو الْعَهْدَ بِهِذِهِ الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَ عَجَبِي لَا يَنْقُضِي إِذَا ذَكَرْتُ أَنَّ أُمَّكَ لَمْ تَقْصِهَا عَلَيْكَ — مُنْذُ وَلَدَتْكَ — كَمَا تَفْعَلُ أُمَّهَاتُ الْخَطَاطِيفِ جَمِيعًا.»

(٣) الْأَمِيرُ الْمُحْسِنُ

فَاشْتَدَّ شَوْقُ «زَوَّارِ الْهِنْدِ» وَإِخْوَتِهِ إِلَى سَمَاعِ تِلْكَ الْقِصَّةِ الشَّائِقَةِ، وَأَنْشَأَ وَالِدُهُنَّ يُحَدِّثُهُنَّ بِهَا، فَيَقُولُ: «كَانَ يَا مَا كَانَ، فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَغَايِرِ الْأَوَانِ، أَمِيرٌ مَعْرُوفٌ بِطَيِّبَةِ الْقَلْبِ،

مَوْصُوفٌ بِالرَّفَقِ وَالْإِحْسَانِ، وَالْعَطْفِ عَلَى الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ، وَالْبِرِّ بِالْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ مِنْ بَنِي الْإِنْسَانِ.

(٤) التَّمَثَالُ الذَّهَبِيُّ

فَلَمَّا مَاتَ، أَقَامَ لَهُ عَارِفُو فَضْلِهِ تَمَثَّالًا كَبِيرًا؛ عَرَفَانَا لِمُرُوءَتِهِ، وَتَخْلِيدًا لِعَظَمَتِهِ، وَكَسُوا التَّمَثَالَ جِلْبَابًا رَقِيقًا، نَسَجُوا خُيُوطَهُ مِنْ خَالِصِ النُّضَارِ (مِنَ الذَّهَبِ الْحَرِّ).
وَاخْتَارُوا لِهَذَا التَّمَثَالِ — مِنْ زُرْقِ الْيَوَاقِيتِ الْنَفِيسَةِ الْبَرَّاقَةِ — أَعْلَى يَاقُوتَتَيْنِ؛ فَصَنَعُوا مِنْهُمَا عَيْنَيِ التَّمَثَالِ، عَلَى أَكْمَلِ مِثَالٍ.



وَاهْتَدَوْا — بَعْدَ طُولِ الْبَحْثِ — إِلَى دُرَّةٍ كَبِيرَةٍ مُوْتَلَقَةٍ (لَامِعَةٍ) مِنْ أَنْفَسِ الْعَقِيقِ الْأَحْمَرِ، فَجَعَلُوهَا عَلَى مَقْبِضِ سَيْفِهِ، حُلِيَّةً تَبْهَرُ بِمَرَاةَا عَيْنٍ مَنْ يَرَاهَا.

(٥) الفَرَاشَةُ الصَّفْرَاءُ

وَكَانَ «أَبُو الْفِدَاءِ» الْمَلَقَّبُ بِـ «عُصْفُورِ الْفِرْدَوْسِ» يُحَلِّقُ — ذَاتَ لَيْلَةٍ — فِي الْجَوِّ (يَرْتَفِعُ وَيَسْتَدِيرُ فِي طَيْرَانِهِ كَالْحَلَقَةِ)، وَكَانَتْ رِفَاقُهُ الْخَطَاطِيفُ قَدْ سَبَقَتْهُ إِلَى السَّفَرِ، مُنْذُ شَهْرٍ وَنِصْفِ شَهْرٍ، ذَاهِبَةً عَلَى عَادَتِهَا فِي الْهَجْرَةِ السَّنَوِيَّةِ إِلَى «مِصْرَ».

وَلَمْ يُعَوِّقْهُ عَنِ الذَّهَابِ مَعَ رِفَاقِهِ إِلَّا فَرَطُ مَحَبَّتِهِ وَوَفَائِهِ لِنَبْتَةِ ظَرِيفَةٍ مِنْ عِيدَانِ الْقَصَبِ الطَّوِيلَةِ، تَعَرَّفَ بِهَا، وَسَكَنَ إِلَيْهَا فِي فَصْلِ الرَّبِيعِ، وَكَانَ مُسْرِعًا فِي طَيْرَانِهِ — حِينِيذٍ — خَلْفَ فَرَاشَةٍ كَبِيرَةٍ صَفْرَاءَ.

(٦) فِي جِوَارِ الْقَصَبَةِ

فَسَعَلَهُ جَمَالُ تِلْكَ الْقَصَبَةِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ فَوَقَفَ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهَا مُبْتَهِجًا بِلُفْيَاهَا، وَلَمْ يُفَارِقْهَا مُنْذُ رَأَاهَا، وَظَلَّ نَاعِمًا بِهَا طَوَالَ فَصْلِ الصَّيْفِ.

وَلَمَّا أَقْبَلَ الْخَرِيفُ، هَاجَرَ أَصْحَابُهُ إِلَى «مِصْرَ».

وَحَاوَلَ «أَبُو الْفِدَاءِ» أَنْ يُغَرِّي الْقَصَبَةَ بِالطَّيْرَانِ مَعَهُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ إِلَى هَذَا سَبِيلًا؛ لِأَنَّ النَّبَاتَ عَاجِزٌ عَنْ مُفَارَقَةِ مَكَانِهِ.

وَاشْتَدَّ شَوْقُهُ إِلَى السَّفَرِ لِلتَّمَتُّعِ بِرُؤْيَا الْأَهْرَامِ وَالنَّيْلِ، بَعْدَ أَنْ وَدَّعَ الْقَصَبَةَ أَسَفًا عَلَى فِرَاقِهَا، عَاتِبًا عَلَيْهَا أَنْ تَتَخَلَّفَ عَنْ مُصَاحِبَتِهِ فِي رِحْلَتِهِ.

(٧) تِمْنَالُ الْأَمِيرِ

وَهَبَطَ فِي اللَّيْلَةِ التَّالِيَةِ عَلَى تِمْنَالِ الْأَمِيرِ، وَتَهَيَّأَ لِلرُّقَادِ بَيْنَ قَدَمَيِ التَّمْنَالِ. وَإِنَّهُ لَيَهْمُ بِالنَّوْمِ (يَعْزُمُ عَلَيْهِ وَيَقْصِدُهُ)، وَاضْعًا رَأْسَهُ تَحْتَ جَنَاحَيْهِ — عَلَى عَادَةِ الْخَطَاطِيفِ حِينَ تَنَامُ — إِذَا بِقَطْرَةٍ مِنَ الْمَاءِ تَسْقُطُ عَلَيْهِ، ثُمَّ تَتْبَعُهَا قَطْرَةٌ ثَانِيَةٌ، ثُمَّ تَعْقِبُهُمَا قَطْرَةٌ ثَالِثَةٌ.

فَلَمْ يَرِ بُدًّا (مُهْرَبًا) مِنْ مُفَارَقَةِ التَّمْنَالِ، مُعْتَرِمًا أَنَّ يَأْوِي إِلَى رَأْسِ مَدْحَنَةٍ عَالِيَةٍ.

(٨) دُمُوعُ التَّمْثَالِ

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَهُمَّ بِالطَّيْرَانِ، حَتَّى حَانَتْ مِنْهُ التِّفَاتَةُ إِلَى عَيْنَيْ التَّمْثَالِ؛ فَرَأَى الدُّمُوعَ تَتَرَفَّقُ فِيهِمَا (تَدُورُ فِي بَاطِنِ الْجَفْنَيْنِ مِنْهُمَا) عَلَى خَدَّيْهِ.

(٩) قِصَّةُ الْأَمِيرِ

فَاشْتَدَّ عَجَبُ «أَبِي الْفِدَاءِ» مِمَّا رَأَى، وَسَأَلَهُ عَنْ قِصَّتِهِ.
فَقَالَ التَّمْثَالُ فِيمَا قَالَ: «لَقَدْ عَشْتُ حَيَاةً سَعِيدَةً، وَلَمْ تَذَرْفْ عَيْنَايَ (لَمْ تُسِيلَا) دَمْعَةً وَاحِدَةً؛ لِأَنَّيَ لَمْ أَعْرِفْ مَا يَتَعَرَّضُ لَهُ النَّاسُ مِنْ بُؤْسٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا. فَلَمَّا حَانَ حِينِي (مَوْتِي)، وَأَنْتَقَلْتُ مِنْ عَالَمِ الْأَحْيَاءِ إِلَى عَالَمِ الْأَمْوَاتِ، أَصْبَحْتُ أَرَى — وَأَنَا عَلَى هَذَا الِارْتِفَاعِ الشَّاهِقِ (الْعَالِي) — مَا يُبْكِينِي مِنْ مَصَائِبِ النَّاسِ، وَيَكَادُ يَذُوبُ لَهُ قَلْبِي الْمَصْنُوعُ مِنَ الرِّصَاصِ.



(١٠) الأرملة الفقيرة

وَهَآنَذَا أَرَى فَقِيرَةً أَرْمَلَةً (امْرَأَةً مَاتَ زَوْجُهَا)، تَكْسِبُ قُوَّتَهَا بِعَرَقِ جَبِينِهَا، وَلَا تَكَادُ تَنْظُرُ بِالْكَفَافِ مِنَ الرِّزْقِ (بِمَا كَفَّ عَنِ النَّاسِ وَأَغْنَى) إِلَّا بِشَقِّ النَّفْسِ (بِمَشَقَّتِهَا). وَهِيَ دَائِبَةٌ عَلَى الْعَمَلِ، لِتُدَاوِيَ — بِمَا تَنَالُهُ مِنْ أَجْرِ ضَبِيلٍ — وَلَدَهَا الْعَلِيلَ. وَلَوْ اسْتَطَعْتُ لَأَهْدَيْتُ إِلَيْهَا تِلْكَ الْعَقِيقَةَ الثَّمِينَةَ الَّتِي تُحَلِّي مَقْبِضَ سَيْفِي. وَلَكِنِّي عَاجِزٌ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالْإِنْتِقَالِ، كَمَا تَرَى.

فَهَلْ تَبْلُغُهَا (تُوصِلُهَا) إِلَيْهَا مَشْكُورًا مَاجُورًا، لِتَسْتَعِينَ — بِثَمَنِهَا — عَلَى مُدَاوَاةِ ابْنِهَا؟

(١١) أشرار الناس

فَقَالَ «أَبُو الْفِدَاءِ»: «مَا أَحْجَوْنِي إِلَى اللَّحَاقِ بِإِخْوَانِي الَّذِينَ سَبَقُونِي إِلَى «مَصْرٍ»! عَلَى أَنِّي سَأَبْقَى مَعَكَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، تَلْبِيَّةً لِمُرِكَ، وَإِعْجَابًا بِمُرُوءَتِكَ، وَمُشَارَكَةً لَكَ فِي عَاطِفَتِكَ، وَمُعَاوَنَةً لَكَ عَلَى إِنْجَازِ أُمْنِيَّتِكَ بِرَغْمِ قَسْوَةِ الْجَوِّ، وَاشْتِدَادِ الْبَرْدِ، وَكَرَاهِيَّتِي لِلْأَطْفَالِ، بَعْدَمَا رَأَيْتُ مِنْ بَعْضِهِمْ مَا بَغَّضَهُمْ إِلَيَّ.

وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ وَلَدَيْنِ مِنْ أَشْرَارِ الْإِنْسِ، رَمَيَانِي فِي الصَّيْفِ الْمَاضِي بِالْحَجَارَةِ حِينَ رَأْيَانِي، وَلَوْلَا مَا تَمَيَّزْنَا بِهِ — مَعْشَرَ الْخَطَاطِيفِ — مِنْ مَهَارَةٍ وَبَرَاعَةٍ نَادِرَتَيْنِ فِي الطَّيْرَانِ، لَأَلْحَقَا بِي أَذَى بَلِيغًا.

وَلَكِنِّي لَنْ أَخَذَ الطِّفْلَ الْمَرِيضَ بِذَنْبِ غَيْرِهِ مِنْ أَشْرَارِ الْإِنْسِ. وَسَأَكُونُ سَفِيرَكَ (رَسُولَكَ) إِلَيْهِ؛ فَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِ وَلَا تَبْتَسِسْ (لَا تَشْتَكِ وَلَا تَكْتَنِبْ).

(١٢) العقيقة الثمينة

فَشَكَرَ لَهُ التَّمَثُّالُ أَرِيحِيَّتَهُ (سَعَةَ خُلُقِهِ وَارْتِيَاحَهُ إِلَى الْخَيْرِ)، وَحَمِدَ لَهُ عَطْفَهُ وَمُرُوءَتَهُ وَكَرَمَ أَخْلَاقِهِ.

وَأَمْسَكَ الْخُطَافُ بِالْعَقِيقَةِ الثَّمِينَةِ، وَانْتَرَعَهَا بِمَنْقَارِهِ الصُّلْبِ مِنْ مَقْبِضِ السَّيْفِ، ثُمَّ طَارَ بِهَا — وَهِيَ فِي مَنْقَارِهِ — حَتَّى بَلَغَ بَيْتَ الصَّبِيِّ الْفَقِيرِ، وَوَضَعَهَا فِي مَكَانٍ أَمِينٍ بِالْقُرْبِ مِنْ سَرِيرِ الْمَرِيضِ الْمُحْمُومِ (الَّذِي أَصَابَتْهُ الْحُمَّى).

(١٣) ثَوَابُ الْخَيْرِ

وَلَمَّا عَادَ إِلَى التَّمْثَالِ، وَأَخْبَرَهُ بِقِصَّتِهِ، شَكَرَ لَهُ التَّمْثَالُ صَنِيعَهُ (مَعْرُوفَهُ). وَأَحْسَ «أَبُو الْفِدَاءِ» بِالْحَرَارَةِ وَالْدَّفءِ يَسْرِيَانِ فِي جَسَدِهِ بِرَغْمِ بُرُودَةِ الْجَوِّ. فَسَأَلَ التَّمْثَالُ عَنِ السَّرِّ فِي ذَلِكَ.

فَقَالَ لَهُ التَّمْثَالُ: «إِنْ لِكُلِّ صَنِيعٍ مِنَ الْخَيْرِ ثَوَابُهُ، وَاللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَمَا لَيْتَ أَنْ اسْتَسْلَمَ لِلْكَرَى (لِلنَّوْمِ) فِي دَعَةِ (رَاحَةِ) وَاطْمِئْنَانٍ.

(١٤) الْكَاتِبُ الْبَائِسُ

وَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ التَّالِي، أَقْبَلَ عَلَى صَدِيقِهِ التَّمْثَالِ يَسْتَأْذِنُهُ فِي السَّفَرِ إِلَى «مِصْرَ». وَلَكِنَّ التَّمْثَالِ رَجَاهُ مُسْتَعْطَفًا أَنْ يَبْقَى مَعَهُ لَيْلَةً أُخْرَى؛ لِيُعَاوَنَ فَتَى بَائِسًا مِنَ النَّابِغِينَ، مَشْغُولًا بِكِتَابَةِ قِصَّةِ مَسْرُجِيَّةٍ بَارِعَةٍ، وَلَكِنَّ الْجُوعَ يَعُوقُهُ (يُؤَخِّرُهُ) عَنْ إِتِمَامِهَا، وَيَكَادُ يَقْتُلُهُ. ثُمَّ قَالَ لَهُ: «لَيْتَكَ تَأْخُذُ إِحْدَى عَيْنَيَّ لِتَحْمِلَهَا إِلَيْهِ؛ فَهِيَ — كَمَا تَرَى — يَاقُوتَةٌ زَرْقَاءٌ مِنْ أَنْفَسِ اللَّالِئِ النَّادِرَةِ، لِيَسْتَعِينَ — بِثَمَنِهَا — عَلَى إِنْجَازِ مُهِمَّتِهِ».

وَتَرَدَّدَ الْخُطَافُ فِي تَلَبُّيَةِ أَمْرِ صَاحِبِهِ، وَبَكَى رَحْمَةً لَهُ وَإِشْفَاقًا عَلَيْهِ. وَلَكِنَّ التَّمْثَالِ أَلَحَّ فِي الرَّجَاءِ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعْ «أَبُو الْفِدَاءِ» مُخَالَفَةَ أَمْرِهِ.

وَطَارَ «أَبُو الْفِدَاءِ» وَفِي مَنْقَارِهِ عَيْنُ التَّمْثَالِ، بَعْدَ أَنْ نَقَرَهَا وَانْتَرَعَهَا مِنْ مَكَانِهَا. وَمَا زَالَ يَطِيرُ بِهَا حَتَّى بَلَغَ حُجْرَةَ الْفَتَى النَّابِغَةِ؛ فَوَضَعَهَا بِحَيْثُ تَقَعُ عَلَيْهَا عَيْنَاهُ. وَكَانَ لَهُذِهِ الْيَاقُوتَةُ الثَّمِينَةُ أَكْبَرُ أَثَرٍ فِي تَشْجِيعِ الْمُؤَلِّفِ الْفَتَى، وَانْتِعَاشِ أَمَلِهِ، وَمُضَاعَفَةِ نَشَاطِهِ فِي تَجْوِيدِ عَمَلِهِ.

(١٥) الفتاة البائسة

وَعَادَ الْخُطَّافُ إِلَى صَاحِبِهِ التَّمْتَالِ؛ لِيُودِّعَهُ، مُسْتَأْذِنًا فِي السَّفَرِ إِلَى «مِصْرَ». وَلَكِنَّ التَّمْتَالَ أَلَحَّ عَلَيْهِ فِي الرَّجَاءِ أَنْ يَبْقَى مَعَهُ لَيْلَةً ثَالِثَةً، لِيَنْتَزِعَ الْجَوْهَرَةَ الْبَاقِيَةَ مِنْ عَيْنِهِ الْأُخْرَى، وَيَحْمِلَهَا إِلَى فَتَاةٍ فَقِيرَةٍ فَقَدَتْ عَائِلَهَا (كَافِلَهَا الَّذِي يُنْفِقُ عَلَيْهَا)، وَكَادَ الْيَأْسُ — مِنْ بَعْدِهِ — أَنْ يَقْتُلَهَا. فَقَدْ أَعْوَزَهَا الْكِسَاءُ وَالطَّعَامُ (أَعْجَزَهَا أَنْ تَحْصَلَ عَلَى الْمَلْبَسِ وَالْمَأْكَلِ)، وَحَرَمَهَا الْبُرْدُ وَالْجُوعُ طِيبَ الْمَنَامِ.



وَتَرَدَّدَ «أَبُو الْفِدَاءِ» فِي نَقْرِ عَيْنِهِ الْأُخْرَى، مُشْفِقًا عَلَيْهِ مِنَ الْعَمَى؛ وَلَكِنَّهُ اضْطُرَّ إِلَى الْإِذْعَانِ (الْخُضُوعِ) لِأَمْرِ صَاحِبِهِ التَّمْتَالِ، وَنَقَرَ عَيْنَهُ الْأُخْرَى، ثُمَّ حَمَلَهَا إِلَى الْفَتَاةِ، لِتَعْنَى (لِتَعِيشَ) بِمَنْهَا طَوْلَ الْحَيَاةِ.

(١٦) وَفَاءُ الْخُطَّافِ

وَلَمَّا عَادَ الْخُطَّافُ إِلَيْهِ، قَالَ لَهُ: «لَنْ أَتْرُكَ صُحْبَتَكَ بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَدًا، لِأَوْسِيكَ فِي مُحَنَّتِكَ بَعْدَ أَنْ فَقَدْتَ عَيْنَيْكَ جَمِيعًا.»
وَحَاوَلَ التَّمَثُّلُ أَنْ يَنْبِيَهُ (يَرْجِعَهُ) عَنْ عَزْمِهِ، وَالْحَجَّ عَلَيْهِ فِي الرَّجَاءِ أَنْ يَتْرُكَهُ لِيَتِمَّ رَحْلَتُهُ السَّنَوِيَّةُ إِلَى «مِصْرَ».
وَلَكِنَّ وَفَاءَ «أَبِي الْفِدَاءِ» أَبَى عَلَيْهِ أَنْ يُفَارِقَ ذَلِكَ الْمُحْسِنَ الْكَرِيمَ، الَّذِي جَادَ بِأَنْفُسِ مَا يَمْلِكُ فِي سَبِيلِ مُعَاوَنَةِ الْبَائِسِينَ.

(١٧) الْجَائِعَانِ الصَّغِيرَانِ

وَاقْتَرَحَ عَلَيْهِ التَّمَثُّلُ أَنْ يَرْتَادَ (يَطْلُبَ) شَوَارِعَ الْمَدِينَةِ وَبُيُوتَهَا، لِيُفْضِيَ إِلَيْهِ بِأَنْبَاءِ فَقَرَائِهَا وَمَنْكُوبِيهَا؛ لَعَلَّهُ يَسْتَطِيعُ إِسْدَاءَ الْمَعُونَةِ إِلَيْهِمْ. وَمَا لَبِثَ «أَبُو الْفِدَاءِ» أَنْ رَأَى طِفْلَيْنِ صَغِيرَيْنِ نَائِمَيْنِ عَلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ، تَحْتَ الْجِسْرِ، وَهُمَا يَتَضَوَّرَانِ جُوعًا، وَقَدْ أَقْبَلَ الْعَسَسُ (الَّذِينَ يَحْرُسُونَ النَّاسَ لَيْلًا). فَلَمَّا رَأَاهُمَا الْعَسَسُ أَيْقَظُوهُمَا مِنْ رُقَادِهِمَا؛ فَذَهَبَ الطِّفْلَانِ يَجُوبَانِ (يَقْطَعَانِ) شَوَارِعَ الْمَدِينَةِ، وَالْمَطَرُ يَنْهَمِرُ (يَنْسَكِبُ) عَلَيْهِمَا، وَقَدْ عَزَّ عَلَيْهِمَا الْمَلْجَأُ وَالْمَأْكُلُ وَالْكِسَاءُ.
فَلَمَّا أَفْضَى الْخُطَّافُ بِقَصَّتِهِمَا إِلَى صَاحِبِهِ التَّمَثُّلِ، رَجَاهُ أَنْ يَنْتَزِعَ قِطْعَةً مِنْ ثِيَابِهِ الذَّهَبِيَّةِ؛ لِيَمْنَحَ الطِّفْلَيْنِ مَا يَقِيمُ أَوْدَهُمَا، وَيُعِيدَ الْحَيَاةَ إِلَيْهِمَا.

(١٨) خَاتِمَةُ «أَبِي الْفِدَاءِ»



وَمَا زَالَ «أَبُو الْفِدَاءِ» يَنْتَزِعُ مِنْ ثِيَابِ صَاحِبِهِ قِطْعَةً بَعْدَ أُخْرَى، وَيَهْبِطُ لِفَقِيرٍ بَعْدَ آخَرَ؛
حَتَّى فَنِيَ الْكِسَاءُ الذَّهَبِيُّ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْءٌ.
وَاشْتَدَّ الْبُرْدُ، وَأَشْرَفَ «أَبُو الْفِدَاءِ» عَلَى التَّلَفِ (قَرَبَ مَوْتَهُ)؛ فَأَقْبَلَ عَلَى التَّمَثُّالِ يُقَبِّلُهُ
مُودِّعًا إِيَّاهُ قُبَيْلَ مَوْتِهِ، ثُمَّ هَوَى (سَقَطَ) عَلَى قَدَمَيْهِ — مِنْ قَوْرِهِ (لِلْحَالِ) — مَيِّتًا.

(١٩) قَلْبُ التَّمَثُّالِ

وَاشْتَدَّ الْبُرْدُ، وَتَسَاقَطَ الْجَلِيدُ؛ فَتَحَطَّمَ قَلْبُ التَّمَثُّالِ.
وَلَعَلَّهُ أَنْشَقَ حُزْنًا لِمَصْرَعِ صَاحِبِهِ «أَبِي الْفِدَاءِ».

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي مَرَّ مُهَنْدِسُ الْمَدِينَةِ بِالتَّمْنَالِ الْمُحَطَّمِ؛ فَاقْتَرَحَ عَلَى أُولَى الْأَمْرِ أَنْ يُزِيلُوهُ،
بَعْدَ أَنْ أَصْبَحَ لَا نَفْعَ فِيهِ، وَلَا فَائِدَةَ تُرْجَى مِنْ بَقَائِهِ.

(٢٠) مَلِكُ كَرِيمٍ

وَجَاءَ مَلِكُ كَرِيمٍ، فَحَمَلَ قَلْبَ التَّمْنَالِ وَجَسَدَ الطَّائِرِ الْمَيِّتِ إِلَى السَّمَاءِ: تَكْرِيمًا لَهُمَا عَلَى
مَا بَدَلَا، وَتَخْلِيدًا لِذِكْرَاهُمَا، وَتَقْدِيرًا لَهُمَا عَلَى مَا صَنَعَاهُ بَعْدَ أَنْ جَادَ كِلَاهُمَا بِأَنْفُسِ مَا
يَمْلِكُهُ فِي الْحَيَاةِ..

(٢١) دَهْشَةُ الْخَطَاطِيفِ

فَلَمَّا أَتَمَّ «زَوَّارُ الْهِنْدِ» قِصَّتَهُ، أُعْجِبَ بِهَا أَبْنَاؤُهُ، كَمَا أُعْجِبَتْ بِهَا أَنْتَ، وَكَمَا أُعْجِبَ بِهَا —
مِنْ قَبْلِكَ — الشَّاعِرُ الْمُبْدِعُ «أُسْكَارُ وَيْلِدُ»، فَصَاعَ مِنْهَا تِلْكَ الْقِصَّةَ الرَّائِعَةَ، بَعْدَ أَنْ افْتَنَّ
فِي إِبْدَاعِهَا كُلِّ الْإِفْتِنَانِ، وَأَحْسَنَ فِي تَصْوِيرِ حَوَادِثِهَا كُلِّ الْإِحْسَانِ، وَخَلَدَهَا بَيَانُهُ السَّاحِرُ
عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ.

(٢٢) طَعَامُ الْعِشَاءِ

وَأَحْسَ الْخَطَاطِيفُ أَلَمَ الْجُوعِ؛ فَسَأَلُوا آبَاءَهُمْ أَنْ يُحْضِرَ لَهُمْ شَيْئًا مِنَ الزَّادِ.
فَقَالَ لَهُمْ فِي صَوْتٍ خَافِتٍ: «خَفِّضُوا مِنْ أَصْوَانِكُمْ — أَيُّهَا الصَّغَارُ — فَإِنَّ أُمَّكُمْ
نَائِمَةٌ؛ لِتَسْتَرِيحَ فِي هَذَا الْيَوْمِ مِمَّا أَنْقَضَ ظَهْرَهَا (مِمَّا أَثْقَلَهُ حَتَّى جَعَلَهُ مَهْزُولًا مِنْ جُهِدِ
مُضْنٍ)، وَاصْبِرُوا قَلِيلًا، حَتَّى أُحْضِرَ لَكُمْ طَعَامَ الْعِشَاءِ.»

خَاتَمَةُ الْقِصَّةِ

وَمَرَّتِ الْأَيَّامُ عَلَى حَادِثِ «أُمِّ سِنْدٍ» وَذَاعَ أَمْرُهُ بَيْنَ الْخَطَاطِيفِ كُلِّهَا، وَتَوَثَّقَتْ أَوَاصِرُ الصَّدَاقَةِ وَالْحُبِّ بَيْنَ «أُمِّ هِنْدٍ» وَ«أُمِّ سِنْدٍ»؛ فَأَصْبَحَتَا مُتَلَازِمَتَيْنِ، لَا تُطِيقُ إِحْدَاهُمَا فِرَاقَ صَاحِبَتِهَا الْأُخْرَى.

وَيُقَالُ — وَقَدْ أَكَدَتِ الْخَطَاطِيفُ هَذَا الْقَوْلَ — إِنَّ «أُمَّ هِنْدٍ» حِينَ عَادَتْ مِنْ رِحْلَتِهَا فِي الْعَامِ التَّالِي، بَنَتْ عُشَّهَا فِي ذَلِكَ الْمَنْزِلِ الْمَهْجُورِ، بِجَوَارِ «أُمِّ سِنْدٍ»؛ حَتَّى تَتَنَعَّمَ بِحَدِيثِهَا، وَتَقَرَّ عَيْنًا بِجَوَارِهَا، وَلَا تَفَارِقَهَا لَحْظَةً وَاحِدَةً بَقِيَّةَ حَيَاتِهَا.

الْخُطَّافُ

نشأته

طائر ذكي نشيط، في مثل حجم العصفور، أو قريب منه، لا يجنح إلى الدَّعة (لا يميل إلى الهدوء)، ولا يرتاح للسكينة، ولا يألفهما، ولا يطيق الكسل، ولا يخلد (لايركن) إلى الراحة، ولا يعرفهما، إلا إذا جَنَّ عليه الليل، أو حان الوقت لتغذية أفراده الصغار.

لونه

ويتميز لونه بسواد يضرب (يميل) إلى الزُّرْقَة، ولكنه يلمع في أعلاه، ثم يتحول — في صدره وتحت جَنَاحيه — إلى بياض شاهق. فإذا انتهى إلى زوره وجبهته، انقلب إلى دُكْنَة (حمرة ضاربة إلى السواد)، ثم تنتهي رقبته الحمراء بخط أزرق.

هجرته

وهو مثال عجيب للصبر والدعوى والمثابرة على السعي وراء رزقه، لا يعرف الكلال (الإعياء والتعب)، ولا يتسرب إلى نفسه السأم ولا الملل.

وهو لا يبالي أن يهجر موطنه إلى أبعد المواطن، إذا أعوزه الرزق (أعجزه إدراك القوت وعزَّ عليه الظَّفَرُ به).

في سبيل القوت

وهو يستهين ببُعد الشُّقَّةِ (يستخف مستهزئًا بالمسافات الشاسعة لا يبالي بُعدها)، مجتازًا مئات الأميال — بل آلافها — ليظفر بما يبتغيه من القوت (ليفوز بما يطلبه من الطعام)، متابرًا (مواظبًا مداومًا) طول يومه طائرًا، لا يهدأ ولا يقرُّ (لا يثبت ولا يسكن) له قرار.

طعامه

وهو يقتات بما يصادفه في طيرانه في الجو من أسراب البعوض والذباب، وما إلى ذلك من الحشرات الأخرى الهائلة في أجواز الفضاء، أعني: الذاهبة في طبقات الجو إلى غير غاية. ومن عادته أن يفتح فاه — وهو طائر — حتى إذا امتلأ فاه (فمه) بالحشرات أطبقه عليها تَوًّا (حالا)، عائداً إلى عُشِّهِ، لِيَعْذُو بها أفراخه الصغار.

طيرانه

وهو دائم الطيران في الجو — بلا انقطاع — في خطوط متعرجة ملتوية، منسابا في أجواز الفضاء (ذاهبًا كل مذهب في طبقات الهواء)، صاعدًا هابطًا، مرتفعًا منخفضًا، يمينة ويسرة، في انحدار وارتفاع، لا يكل ولا يمل.

على وجه الماء

وهو يداعب (يلعب) الهواء والماء كليهما بجناحيه، ويحلو له أن يرפרف على سطح الماء مزهواً (معجبًا) فرحان، ثم يغطس في رشاقة عجيبة، وخفة نادرة. فإذا أتم استحمامه راح يطفُرُ (يقفز مرتفعًا) على وجه الماء دانيًا (مقتربًا) من صفحته ضاربًا عليها برشاش خفيف. وربما حَسَا الماء (تناوله بمنقاره) في أثناء طيرانه.

فتك العواصف

ولعل أخشى ما يخشاه ويرتاع له: عصف الرياح (شدتها) وهبوب الزوابع، فهو — لضالة جسمه — عاجز عن مقاومتها، وكثيراً ما يذهب ضحية لها. وربما فتكت العواصف بجماعات كاملة من أسرايه.

مسكنه

ويتخذ عشه بالقرب من المساكن، في بعض الغرف الخربة العالية من المنازل المهجورة، أو في أعلى المداخل، أو تحت الجسور، وربما اتخذته في بعض الأشجار. وهو يجمع له ما تناثر من القش، وما تَفَتَّت من الأغصان، وما جَفَّ من الحشائش، بعد أن يختارها بمقادير متناسبة، ثم يخلطها بلعابه اللزج، ليبتني بها عشه، بعد أن يكسبها قوة، فلا تلبث أن تستمسك وتقوى. فإذا تم له ذلك، راح يُؤَثِّثُ عَشَّهُ بما تناثر من الورق والدريس والشعر، وما إلى ذلك مما يجمعه بمنقاره ومخالبه.

صوته

وللخطاف صفير، حلو الجرس (عذب الصوت)، عميق التأثير في نفس سامعه، مستطيل النغمة. وليس متقطعاً كصفير العصفور، وكلاهما يختلف عن صوت الحمامة حين تهدل (حين تقرقر) بصوت لين ترتاح الأذان لسماعه، وتهش النفوس لترداده (تسرُّ بتكراره مرة بعد أخرى).

وتختلف أصوات الطيور باختلاف أجناسها — حسناً وقبحاً — من الضد إلى الضد، حتى تبلغ المسافة أقصاها (نهايتها) إذا قابلنا بين نعيب البوم والغربان، وشدو البلابل والكِرْوَان.

ذيله وجناحه

وكما يختلف صغير الخطاف عن صغير العصفور، يختلف ذيلاهما كذلك. فذيل العصفور أقصر من جسمه، ولكن ذيل الخطاف يكاد يساوي جسمه في الطول، ثم ينتهي بريشتين طويلتين على جانبيه. والخطاف إذا وقف، اقترب جناحه من نهاية ذيله المتشعب.

على وجه الأرض

وقلما يُرى الخطاف سائرًا على وجه الأرض، لضعف رجليه، وعجز مخالبه عن المشي. على حين يُرى العصفور والحمامة، يسير كل منهما على قدميه حينًا، ويطير كلاهما في الجو مرفرفًا بجناحيه حينًا آخر، لقدرته على المشي والطيران جميعًا. ويمتاز العصفور والحمامة بأن كليهما لا يتركنا — في فصل الشتاء — كما يتركنا الخطاف.

